البنية الأساسية للرؤية القرآنية للعالم

إنّ محاولة الوصول إلى المخطط المفهومي الخاص بالرؤية القرآنية للعالم، يشترط فهما عميقا لمنهجية التحليل الدلالي عند "إيزوتسو"، خصوصا ما يتعلّق بالدراسة التحليلية النظامية للكلمات المفتاحية ذات الدّور بالغ الأهمية في تحديد ميزة النظام القرآني، وهذه الصورة التخطيطية التي نرسمها من كتاب الباحث تقوم على الشبكة المفهومية التي تجعل الكلمات في علاقات صميمية ببعض، ودراسة المتضادات المفهومية الموزّعة بين الحقول الدلالية، لأنّه، ومن وجهة نظر علم الدلالة، ووفق آراء الباحث: الرؤية القرآنية للعالم قابلة لأن تُجسّد كنظام مبني على مبدأ التضاد المفهومي.

ويبدأ هذا المخطط المفهومي من العلاقة الجوهرية بين الله والإنسان، فكيف ذلك؟

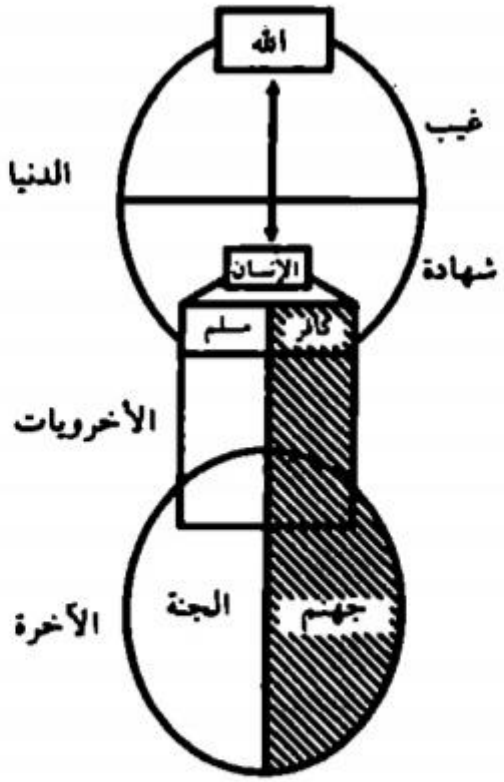

الشكل رقم (3-7)

1. الله والإنسان:

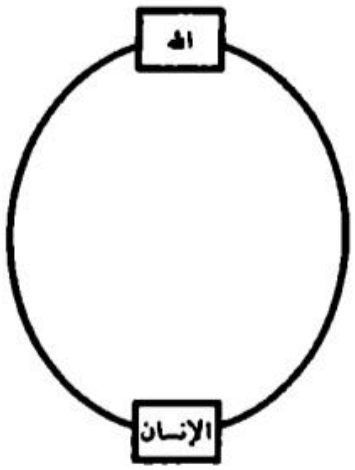

الشكل رقم (3-1)

إنّ استنتاجا علميا مفاده أنّ عالم الوجود القرآني قائم على جملة من المتضادات المفهومية، لا يعني وجود ضد "لله"، لأنّ العالم القرآني ذو مركزية إلهية و"الله" يقوم في مركز عالم الوجود بالذات، وكل الموجودات أدنى منزلة منه في تراتبية الوجود بصورة مطلقة، وبالتالي نجده من المنظور الدلالي هو الكلمة-المركز العليا في المعجم القرآني، ووضع الإنسان في القطب المقابل له استنادا إلى المهمّة العظيمة التي كُلّفت له، وهي خلافة الأرض وهذه العلاقة المتبادلة بينهما هي التي تخلق الحركية داخل مسرح الوجود بشكل عام. ومن هذا الفهم، نجد أنّ "الله" هو القطب المركزي الأعلى، والإنسان هو القطب المركزي الثاني الذي يقابله، وهو ما يجعل عالم القرآن يتمرآى كدائرة ذات نقطتين أساسيتين تقابل إحداهما الأخرى (إيزوتسو ص ص127، 128).

ومقارنة وصفية دلالية مع النظام الجاهلي نجد أنّ هذه الدائرة غير مكتملة في ثقافتهم، لأنّ الرّؤية "الجاهلية" للعالم ذات مركزية إنسانية، وبالتالي يمثّل الإنسان القطب المركزي المفهومي الوحيد الذي لا مقابل له، رغم إيمانه بوجود القوى غير المرئية كالله والجن، ولكنها تحتل موضعا ضيّقا في النظام الجاهلي. على هذا الأساس لم يكن هناك توتر روحي يتخلل عالم وجودهم. أمّا في عالم الوجود القرآني فالميزة الأساسية له هي العلاقة التبادلية بين الله والإنسان.

2. المجتمع المسلم

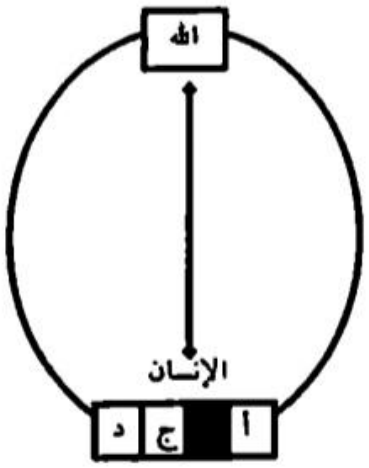

أ = أهل الكتاب
ب = المسلمون
ج = المنافقون
د = الكفار

الشكل رقم (3-2)

من المركزيات التي تغيّرت أيضا في المجتمع المسلم مفهوم الوحدة الاجتماعية، لقد طان المجتمع الجاهلي شديد الارتباط بالقرابة الدموية، توحّدهم القبيلة وتحويهم، لكنّ الغسلام قد غيّر هذا المفهوم بأنّ جعل الوحدة الإيمانية هي التي الجامعة، لهذا أصبح مصطلح "المجتمع المسلم" هو البديل الدلالي أو (الأمّة المسلمة)، وهذا المفهوم كما يشرحه "إيزوتسو" يعني مجتمعا من الناس الذين قد سلّموا أنفسهم لله. هذا من شأنه أدّى إلى إحداث اضطراب في بنيو الحقل الدلالي لـ"المجتمع"، بين الذين اسلموا والذين رفضوا.

إنّ الاستجابة الإنسانية للعلاقة بين الله والإنسان ليس واحدة، بل تختلف حسب نظرتهم للحياة والوجود بين الإيجابية والسلبية، كلّ نوع من العلاقات الأربعة المذكورة سابقا، بهذه الطريقة نجد أنّ البنية الداخلية لـ"الأمة" تقدّم تصوّرا جديد، يعبّر عن رأي القرآن نفسه حول تقسيم الإنسان، وهو ما عدّده إلى : أهل الكتاب، المسلمون، المنافقون، الكفار.

3. **الغيب والشهادة:**

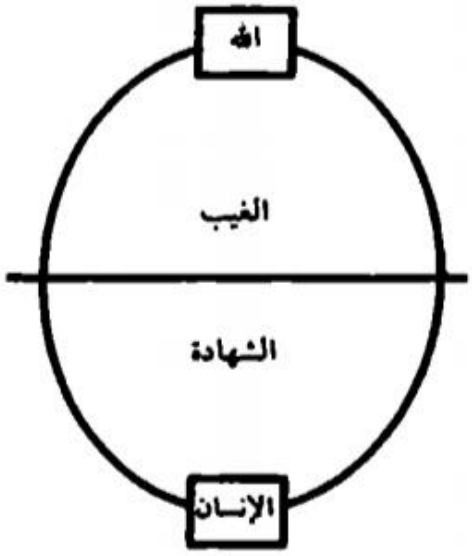

الشكل رقم (3-3)

لابد أن ننتبه إلى أنّ المفاهيم التي يقدّمها إيزوتسو، والتحليلات العديدة التي تخص البن المفهومية للكلمات المفتاحية تجري في إطار المقارنة بين النظامين الجاهلي والقرآني، قصد رصد التغيّرات الدلالية الحاصلة، والتصوذر الجديد الذي صاغه القرآن الكريم لعالم الوجود.

والغيب والشهادة من المصطلحات التقنية الهامية التي تسهم في تشييد البنية الأساسية للرؤية القرآنية للعالم، لأّن القرن الكريم يقسم عالم الوجود إلى عالم الغيب وعالم الشهادة شهادة، ويبدو انّه تضاد مفهومي هام، وإن كانت الأشعار الجاهلية، كما أشار الباحث، تورد بعض الشواهد عن توظيف كلمة الغيوب وعالم الغيب بصفات: المستقبل المجهول، أو ما يقع وراء قوة الإدراك الإنسانية، أو ما هو مضمر في القلب، إلا أنّها لا تتعالق صميميا مع الجانب الدّيني. وهو اختلاف دلالي آخر يُمركزه القرآن في مخطّطه الوجودي.

4. **الدنيا والآخرة:**

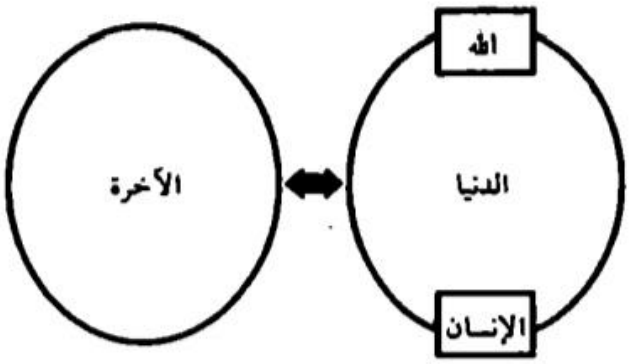

الشكل رقم (3-4)

من الكلمات المفتاحية الهامة أيضا في البنية الأساسية للرؤية القرآنية للعالم "الدنيا" و"الأخرة"، وهما كلمتان تتعالقان بشدّة، إلا توظّف إحداهما إلى بإشارة صريحة أو ضمنية للأخرى، إذ يفترض مفهوم "الدنيا" مفهوم الخرة ويقف متضادا معه.

كلمة "الدنيا"، وفق تحليل "إيزوتسو" شائعة الوجود في الأدب الجاهلي، وقد يوحي الأمر بارتباطها بـ"الأخرة"، لكن نظرة وجود عالم آخر أكثر أهمية وقيمة لم تترسخ بعمق في أذهان النّاس، فهي لم تصدر عن الوثنية العربية الخالصة التي من الأفضل وصف نظرتها الأساسية للوجود الإنساني بانّها نوع من (مذهب اللذة المتشائم) المستمدّ من تلك القناعة الراسخة بأن لا وجود لشيء بعد الموت على الإطلاق" وهي نظرة متجسّدة في أشعارهم. (ينظر: إيزوتسو، ص144).

أمّا في الدائرة التوحيدية التي يؤصّلها القرآن الكريم، فإنّ هذ التّعالق يُعاد تأسيسه في صيغته الأصلية بحيث يقف هذين المفهومين في تعالق مباشر من جديد، ليخلق التوتر الروحي المميّز للرؤية القرآنية للعالم.

5. الجنة والنّار:

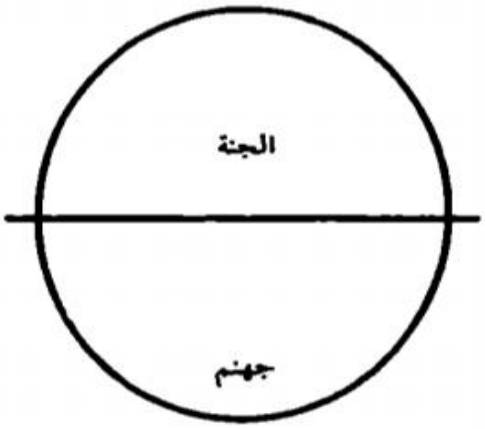

الشكل رقم (3-5)

في الحديث عن كلمة "الأخرة" وفق التصوّر القرآني، نجد أنّه عالم يتفرّع إلى طريقين اثنين يؤول إليها الإنسان، حسب استجابته التي تمّ ذكرها في البداية، وهذا التفرّع الثنائي من شأنه يسهم في خلق تضاد مفهومي آخر، لا يتجزّأ عن البنية الأساسية للرؤية القرىنية للعالم، هو "الجنة" و"جهنّم"، أي يدخل ضمن إعادة التقويم وإعادة تحديد أهمية المفاهيم القديمة في الإسلام.

وبالعودة إلى الأشعار الجاهلية، وحسب التحليل العلمي لـ"إيزوتسو"، لم يكن في الفكر الجاهلي تصوّرا بهذا الشكل عن العالم الآخر، لكن لا ينبغي التّسرّع والقول بأنّه كان مجهولا تماما، فالوضع الثقافي السائد في الجزيرة العربية قبل الإسلام يوحي بشيء من هذا القبيل، مثلما نجده في البيت الشعري لعنترة بن شداد "ينظر: إيزوتسو، ص148)، إذ يماثل بين عذاب الهجر وبين عذا نار الجحيم المتلظّية التي تحرق كلّ ما يلقى فيها حتّى الرّماد. وهي فكرة متجلّية بوضوح رغم عدم توظيفه لكلمة "جهنّم". ورغم هذا نجد إيزوتسو مستغربا من حضور هذا المفهوم في البيت الشعري لعنترة، وهو بذا يعيده إلى التأثير القوي للخيال الديني اليهودي-المسيحي في الرؤية الجاهلية للعالم.

فيبدو ممّا سبق أنّ "الجنّة" و"جهنّم" كانا معروفين في الفكر الجاهلي، لكنّها رؤية بعيدة عن المركز الإلهي كلّ البعد، ولم يعبذرها عن الأهمية التي يمكن من خلالعا اعتبارهما مصطلحين مفهومين، ذلك أنّها يجسّدان بصورة واضحة: الخيّر والسيّئ، الصحيح والخطأ، على هذه الأرض، كما يحدّدهما الله نفسه" (إيزوتسو، ص149)، وهو عالم بعيد لا يقترب أو يلازم عالم الدنيا كما هو متصوّر في الثقافة القرآنية.

6. المفاهيم الأُخروية:

VI. المفاهيم الأخروية

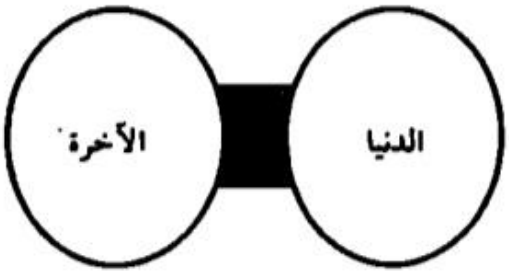

الشكل رقم (3-6)

وفقا للسياق القرآني، الحبل الذي يشد عضد هذا الاتّحاد بين العالمين هو الحقل الأُخروي، بما هو الفسحة الزمنية الفاصلة بينهما، والمجال المفهومي المركزي الذي يجمع كلمات الوجود بأكمله، الأوّل والأخير، ومن خلاله نفهم التغيّر الدلالي الذي جدث للكلمات بإكسابها دلالات تتعلّق بمفهوم الرّجعة و"البعث" واليوم الآخر ويوم الحساب ...

فقد أثار مفهوم "بعث الموتى" زوبعة كبيرة بين المكيين في الايام الأول للإسلام، إذ أنكروا واستهزؤوا من وجود حياة أخرى بعد المو، فبالنسة إليهم كان ذلك هراءً خالصا أن ينتقلوا بأجسادهم إلى حياة أبدية بعد تفتت العظام، ورفضهم لهذا المشهد وعيشه ظاهر في السياق القرآني، وهو بالنسبة غليهم سحر مبين، ومصدر هذا الرأي، أو لنقل بمصطلحات نظرية إيزوتسو، مصدر رؤيتهم الأساسية لهذه القضية يعود إلى تعالقه الصميمي بالدّهر المهلك والمُفني؛ "رؤية عدمية أتت من قناعة شديدة الرّسوخ بأنّه لايمكن أن يكون ثمّة شيء بعد الموت"(إيزوتسو، ص150)، ممّا يعني أنّ هذا الحقل المفهومي لم يحتل موقعا بعينه في نظام محدّد المفاهيم بالنسبة إليهم. وهي مفاهيم تبقى متناثرة ومبعثرة من دون رابطة داخلية متماسكة تجمع بينها.

ولعلّ الاستنتاج العلميّ الدقيق الذي ينبغي أن نضعه خاتمة للتصوّر الجاهلي للأُخرويات: **"... وهذا يعني أنّه على الرّغم من وجود مفاهيم أُخروية في "الجاهلية"، لم يكن ثمّة حقل دلالي للأُخرويات راسخ وذو ملامح واضحة، بوصفه حقلا وسيطا بين الدنيا والعالم الآخر...**"
(إيزوتسو، ص155).